

الخطيب التبريزي حياته و أدبه (المبحث الثاني)

نادر نظام طهراني*

الملخص

كان اسم الخطيب التبريزي يحيى بن علي (٤٢١-٥٠٢ هـ) يتردد في المحافل الأدبية في القرن الخامس الهجري و لا زال، و قد شغلت شخصيته الذاتية والعلمية الرأي العام آنذاك لما تخللها من صفات مرضية حيناً و غير مرضية حيناً آخر، تنطبع بطابع العصر الذي عاش فيه و تناق مع التيامه المنغمس في اللهو أحيانا والعودة إلى الصراط المستقيم أحيانا أخرى، و هذا ما دعاني للبحث حول مجريات حياته المختلفة و ما دار حولها من أخبار و أقوال و ما تبعها من تهم و طعن و جهت إلى تلك الشخصية، مشوّقة إياها تارة و منافحة عنها تارة أخرى، كما بحث حول مكانته العلمية و رأى المؤرخين فيها، والمنزلة التي تبوأها في عالم الآداب وصلته بنظام الملك مؤسس المدارس النظامية، و حامل لواء العلم والآداب في ذلك الزمن.

الكلمات الدلالية: الخطيب التبريزي، مكانته العلمية، نظام الملك، الخطيب

البغدادي.

*. أستاذ بجامعة آزاد الإسلامية في جيرفت (استاد دانشگاه آزاد اسلامی - واحد جيرفت).

شخصية الخطيب الذاتية

إن دراسة شخصية أي أديب ذاتية والعلمية تحتاج إلى دراسة عوامل كثيرة التنوع بطبيعة الفرد و جبلته و استعداداته و نزعاته و محاسنه و مساوئه التي فطر عليها أو اكتسبها في تكوينه الوراثي والعقلي والجسمي، وما يتمتع به من سلامة في الجسم و قدرة على المقاومة، والاستعداد لتحمل الأعباء الجسمية.

كما تعتبر البيئة التي يعيش فيها الأديب المؤثر المهم الثاني الذي يحدد معالم هذه الشخصية. فالمكان والزمان اللذان ولد فيهما و حالة العصر والوطن من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، و من كانوا رفاق صباه و أخدان شبابه، و مقدار الثروة العلمية والثافية والفكرية التي اكتسبها، والأوساط الخاصة التي امتزج بها، والرحلات التي قام بها، والمحافل الأدبية التي تعرف عليها، كل ذلك بوتقة تتكون فيها شخصية الأديب و تصاغ و في تقلبات فصولها تنضج، و في ضلالها تعطي ثمارها التي حملتها حلوة كانت أو مرة.

والتاريخ الأدبي أغفل للأسف ذكر البيت الذي ولى فيه الخطيب، والحي الذي ترعرع فيه، و لم يذكر لنا شيئاً عن نشأته الأولى، و رفاق الصبا، و كيف قضى أول سنين حياته التي تعتبر ذات أهمية كبيرة في تكوين بذرة شخصيته. ولكنني أستطيع أن أتخيل هذه الطفولة، و استنبطها من طيات أخبار شبابه، فحمله كتاب تهذيب اللغة على ظهره، و سيره من تبريز إلى المعرة، يدلنا على أن هذا الإنسان عاش في بيت بسيط بين أبوين متوسطي الحال يخلو من ثمرات العلم؛ ذلك أن الخطيب كما يظهر كان منذ أوائل حياته و عنفوان شبابه يعمل في الدراسة والتحقيق، ولو لم يكن في بيت يهيبء له أسباب العلم، و يفتح له طريق المعرفة، لما استطاع أن يضمن لنفسه هذا الجو العلمي. و مما لا شك فيه أن ذلك الشاب كان يتمتع بجسم سليم و قدرة على تحمل المشاق. ذلك أن الذي يقطع طريقاً طويلة تبدأ من تبريز و تنتهي بمعرة النعمان و هو يحمل على ظهره عدداً من المجلدات، لابد أن يكون ذا قوة بدنية و استطاعة و جلد.

وكان الخطيب أيضاً «ذا صورة بهيئة» (ابن عساكر، لاتا، ج ١٨، ص ٢/٨٨) و وجه صبح.



و قد عاش في أول حياته «فقيراً محتاجاً» (حسين، ١٩٦٥م، ص ٥٧٦)، يجوس في دنيا العلم والمعرفة حتى إذا بلغ مراده، و تفتحت أمامه أبواب السعادة والغنى، و راجت بضاعته، و زاد الإقبال عليه «لبس الحرير والسقلاطون والعمائم المذهبة» (ابن شهبة، لاتا، ص ٥٣١) و انغمس في اللذائذ يعب منها من يستطيع، فقد «ذكر أبوسعدين السمعاني في ذيله و كتاب الأنساب... قال: سمعت أبا منصور محمد بن عبد الملك الحسن بن خيرون المقرئ يذكر عن الخطيب التبريزي أنه ما كان بمرضى الطريقة و ذكر عنه أشياء» (ابن خلكان، ١٢٨٤ق، ص ٣٧٦) «و جاء في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» و قال شيخنا أبو منصور ابن خيرون: «ما كان أبوزكريا بمرضى الطريقة». و يضيف ياقوت الحموي نقلا عن السمعاني أيضاً أن الخطيب «كان يدمن شرب الخمر و يلبس الحرير والعمامة المذهبة، و كان الناس يقرؤون عليه تصانيفه و هو سكران، فذاكر أبا الفضل محمد بن ناصر الحافظ بما ذكره ابن خيرون فسكت و كأنه لم ينكر ذلك» (الحموي، لاتا، ج ٢٠، ص ٢٦) فالخطيب إذن كان يعب من الخمر الكثير، و يلقي دروسه و هو سكران، كما كان «أكولاً نهماً شرهاً» و «يأكل في مجلس واحد (والعهدة على الراوي) عشرة أرطال خبز و ما يتبعها من الأدم» (ابن شهبة، لاتا، ص ٥٣١) و نحن هنا لا بد أن نتساءل، ما الذي دفع الخطيب إلى هذا السلوك، و ما الذي رماه في أحضان هذه السيرة؟ هل هو المال والجمال والجدة، لقد توفر المال والجمال للخطيب إلا أن الجدة هذه لا يمكن الجزم بها، فالخطيب كان دائم البحث والعمل والجهد. ثم كيف سكت أهل عصره و كبار القوم على سلوكه هذا، و هل كان بالإمكان لنظام الملك، و هو ما كان عليه من شأن و علو مكانة و سلطة أن يدفع إلى الخطيب بأبنائه لتعليمهم و تثقيفهم، كما أخبرنا بذلك السبط بن الجوزي بقوله «و كان نظام الملك يعظمه و شغل أولاده بالأدب عليه» (ابن الجوزي، لاتا، ج ١٢، ص ٢٦٦). أقول: هل كان لنظام الملك أن يفعل هذه لولا أن ما قيل في الخطيب مبالغ فيه أو أنه كان نموذجاً لسيرة عصره و بيئته. صحيح أن الخطيب كان يشرب الخمر و لا يظهر إلا سكران، و صحيح أن هذه الظاهرة و هذا العمل يدعوان إلى القول: إن صاحبهما ما كان بمرضى الطريقة، إلا أن ما تركه لنا القرن الخامس من أخبار، و ما نقلته



كتب تاريخ الأدب من وصف لمجالس الحكام و اللهو والطرب. و ما طبع به ذلك الوقت من طابع الترف والبذخ حتى دعى بعصر القيان والغلمان، كل ذلك يدعونا للقول: إن الخطيب كان صورة للحياة الاجتماعية التي عاش فيها، كما أن لبسه الحرير والسقلاطون والعمامة المذهبة لا يخرج عن هذه الحدود. ولست هنا بمعرض الدفاع عن الخطيب، و إنما هي حقيقة، لا بد من تقريرها، و واقع لا بد من الاعتراف به، و هي أن الخطيب رغم هذه الرواية التي ذكرها المعاني و تواردت عليها المصادر الأدبية والتاريخية و نقلتها بالحرف أو اقتطفت منها، لا بد من القول إن الخطيب كان يتمتع بكثير من الصفات الطيبة، فقد كان ثقة في علمه، عطوفاً يمتلك قلباً حساساً يخفق بالحنان، فقد جاء على لسان الوطواط في غرر خصائصه أثناء حديثه عن خبر مجيء أحد أقرباء الخطيب من بلده تبريز إلى المعرفة لمقابلته، قوله: «فلما جاء التبريزي أخبر أن رجلاً جاء من تبريز و معه رسالة من أهلك، فقال: ليتكم منه، فإنني مشوق لما يرد في أخبارهم» (حسين، ١٩٦٥م، ص ٤٠٢)، و هو شوق يدل على العاطفة التي كان الخطيب يكنها في قلبه الرقيق نحو أهله. والحنان الذي يضطرم في جوانبه لسماع أخبارهم.

كما كان عفيف النفس، فهو حينما قدم إلى أبي العلاء، أبقى على نفسه أن ينال منه العلم دون أن يقدم له قيمة ألقابه، فناوله صرة من الذهب لم يكن يمكن غيرها، رغم أن أبا العلاء كان ينفق على عدد من تلاميذه و طلابه من ماله الخاص، و هو ما أخبرنا به التبريزي نفسه قائلاً: «كان المعري يجري رزقاً على جماعة ممن كان يقرأ عليه، و يتردد لأجل الأدب عليه» (المصدر نفسه، ص ٥٧٥)، و حينما رد إليه أبو العلاء العمرة بعد انتهاء دراسة، تناولها منه بعد إباء قائلاً: «ما ظننت أنك تفعل هذا ولا أردت التثقل عليك بغير الاستفادة من علمك، و عرض له بأخذه» (المصدر نفسه، ص ٥٧٦).

و لم يفعل المؤرخون والأدباء أيضاً لا إشارة إلى عقيدته، فقد جاء في أكثر المصادر أن الخطيب كان «مخلطاً في دينه و لعبه بلسانه» (ابن نقطة، لاتا، ص ٤٢٣؛ ابن ماكوك، لاتا، ج ١، ص ٥٤٤؛ ابن شهبة، لاتا، ص ٥٣١)، و لا ندرى كنه هذا التخليط واللعب و هل يتجاوز اللسان إلى القلب أو أنه عميق في نفسه و روحه، و قد وجدت رواية تقول:



«حكى لنا عن أبي زكيا أنه قال: قال لى المعري: ما الذى تعتقد؟ فقلت فى نفسى: اليوم أعرف اعتقاده، فقلت: ما أنا إلا شاك! فقال: هكذا شيخك» (حسين، ١٩٦٥م، ص ٦٩-٧٧-١٤٤-٢٦٨-٢٨٩)، و هى رواية لا يمكن أن تكون مستمسكا على الخطيب أو حجة تدينة بشكل قاطع، فالخطيب كما يبدو لم يكن جادا فى قوله «ما أنا إلا شاك» وإنما أراد فقط أن يقع على رأى و عقيدة شيخه أبى العلاء، و قد كنت أتمنى لو أجد أكثر من هذه الرواية لأصل إلى الحقيقة، ذلك أن الطعن فى الدين أمر لا يلقى على غاربه دون تمحيص و تدقيق، و إن كانت العادة فى العصر العباسى بالصاق تهمة الشك والزندقة جزافاً، و ميل الخلفاء والحكام للصاقها بخصومهم للقضاء عليهم.

و قد يكون انغماس الخطيب فى الخمرة و لبسه العمائم المذهبة والحرير هو السبب فى اتهامه بعقيدته، فقد جاء فى دائرة المعارف الفارسية: «وى به خوش پوشى، شادخوارى و بادهنوشى شهرت داشته است، و از اين جهت، متشرعان در حق او نيز مانند استادش أبوالعلاء معرى طعن ميكرده اند» (مصاحب، ج ١، باب خ) (أى أنه اشتهر بارتداء فاخر اللباس و معاقرة الخمرة و لذا طعن المشرعون به كأستاذه أبى العلاء المعري)، و هذا لا يكفى أيضاً لظنه فى دينه و عقيدته، و يظهر أن أهل عصره لم ينظروا إلى هذا الأمر نظرة جديدة، ذلك أنهم كانوا يعتبرونه حجة فى الحديث والفقهاء، و قد نقلوا عنه الكثير من الأحاديث، كما حاولوا هم أنفسهم نفي التهمة عنه، فقد ورد فى نفس المصادر التى تحدثت عن تخليطه فى دينه و لعبه بلسانه، أنه تاب من ذلك، فقد نقل ابن شهبة فى طبقات النحاة واللغويين قوله: «قيل إنه تاب بلسانه، و قيل إنه تاب من ذلك» (ابن شهبة، لاتا، ص ٥٣٠) و هو نفس ما ذكر فى الإكمال لعلى بن هبة الله (ابن ماكوك، ج ٢، ص ٩٦)، و هى شهادة تحمل فى طياتها نوعاً من الشك. كما جاء فى كتاب ذيل سياست نامه خواجه نظام الملك «أن نظام الملك حينما وقف على حاله (أى حال الخطيب) و إنه يشرب فى كل ليلة، ضاعف له يوميته و شهريته، ف شعر الشيخ ابوزكريا بالخجل، و تاب توبة نصوحا. و لم يعد يقدم بذلك العمل فيما بعد» (شرح حال خواجه نظام، ١٨٩٧م، ص ٦)، فهل حقاً ترك الخطيب الشرب فيما بعد و تاب توبة نصوحاً أو إنه ظل يشرب فى الخفاء؟ لقد



حاول أهل عصره أن يبرئوه حتى بعد وفاته: فقد ذكر في مرآة الزمان لابن الجوزي قوله «ورآه ابن الجواليقي في المنام فقال: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بتصنيف القرآن».

(ابن الجوزي، لاتا، ج ١٢، حوادث سنة ٥٠٢هـ، ص ٢٦٦)

شخصية الخطيب العلمية

يقول العميد الفياض في مدح الخطيب التبريزي:

إِنَّكَ الْأَصْلُ وَمَنْ دُو نَكَ فِي الْعِلْمِ غُصُونُ

و لم يتقصر تنجيد الخطيب على الشعر فقد نقل عن كثير من أعلام الأدب و مؤرخيه عبارات ثرية في بيان علو شأنه العلمي يقول ياقوت الحموي في معجمه إنه «أحد الأئمة في النحو واللغة والأدب، حجة صدوقاً ثبتاً... ثقة في اللغة و ما كان يرويه و ينقله» (الحموي، لاتا، ج ٢، ص ٢٥-٢٦) «و كان نظام الملك يعظمه و شغل أولاده بالأدب عليه»

(ابن الجوزي، لاتا، ج ١٢، ٢٦٦)

«إليه الرئاسة في اللغة والأدب و سار ذكره في الآفاق» (الحموي، لاتا، ص ٢٥-٢٦)، و لا شك في أن المكانة التي تبوأها الخطيب في تلك العلوم والآداب إنما حصلت له نتيجة ما قرأ و طالع و درس و صنف و شرح و لمن يكتب بحفظ ما اكتسب بل أكب على الجمع و التمهيص و الإضافة إليه و تقديمه لعشاق الأدب و العلم سهل التناول كامل الفن و الإبداع.

و الأهم من هذا اشتهار الخطيب بدقته العلمية و بحثه عن حقيقة ما يطالعه و اشغال الفكر في دقائق المعلومات، و عدم القبول بما يعرض له دون إقامة الدليل المنطقي و العلمي. و لعل هذا هو الذي حمله لقطع البلدان إلى أبي العلاء من أجل دراسة كتاب التهذيب و غيره. و كان يستزيد من العلم، كالبحر لا يملئ غاريه مهما ردفه من أنهر و جداول. و من الروايات التي ذكرت عن دقته العلمية ما أورده القفطي في إنباه الرواة على إنباه النحاة أن الخطيب التبريزي بعد أن قرأ كتاب إصلاح المنطق على أبي العلاء «طالبه بسنده متصلاً، فقال له أبو العلاء: إن أردت الدراية فخذ عني و لا تتعد و إن قصدت



الرواية الرواية فعليك بما عند غيري» (حسين، ١٩٦٥م، ص ٥١)
الخطيب كان يقف على مكانة المعرّي العلمية طالبه بسند ما قرأ عليه، وهذا غاية في
الدقة العلمية التي يجب أن يتحلى بها العلماء.

كما كان مدققاً فيما يقرأ ناقداً له، يناقش الأمور بالعقل ولا حجة فقد ورد في لسان
الميزان لابن حجر أن أبازكريا التبريزي قال: «لما قرأت على أبي العلاء بالمعرة قوله:

يدُ بخمس مئين عَسَجِدِ وديت ما بالها قُطعت في رُبْعِ دينارِ
تناقضُ ما لنا إلا السكوت له و أن نَعوِذَ بمولانا من النارِ

سألته عن معناه فقال: هذا مثل قول الفقهاء «عبارة لا يعقل معناها» لو أراد ذلك
لقال: «تعبُدُ ما لنا إلا السكوتُ له» و لما اعترض على الله بالبيت الثاني.

هذه الصفات العلمية و غيرها هي التي كونت للخطيب مكانة علمية بين أهل عصره
و علمائه، و هي التي دعت أمثال الخطيب البغدادي و هو العالم الجليل الذي كان
يكبر الخطيب بثلاثين سنة (مصاحب، لاتا، ج ٤، ص ٥٦٩) إلى أن يعظمه و يروى عنه، و
يستند إلى رأيه في اللغة. جاء في تاريخ دمشق الصقيل للسمع من أبي بكر الخطيب، و
حضر أبوزكريا التبريزي، و كان ذا صورة بهية فحدث الخطيب (البغدادي) ببعض كتب
أبي عبيد فجاءت كلمة عربية غريبة، فقرها الخطيب على الصواب، ثم التفت إلى زكريا
(أبي زكريا) فقال: أليست هكذا: فقال أبوزكريا: بلى يا سيدنا، الله الله!!، يعني أنك لا
تحتاج أن تسأل.» (ابن عساكر، لاتا، ج ١٨، ص ٢/٨٨)

هذه المكانة العلمية هي ولا شك دعت نظام الملك تقديره و احترامه و تعيينه أستاذاً
في المدرسة النظامية «فخر الإسلام» (ابن شهبة، لاتا، ص ٥٣)، يدرس فيها الأدب حتى
دعى بـ «شيخ بغداد في الأدب» (ابن الجوزي، لاتا، ج ٣، ص ١٧٢).

النتيجة

هكذا يمكن القول إن شخصية الخطيب الذاتية شهدت نوعاً من الانحراف، و لكنه
انحراف مؤقت، ذلك أن أول من روى أنه لم يكن مرضى الطريقة، هو أبو ابن السمعاني



ثم تبعه في ذلك بقية المؤرخين يزيدون على الرواية و ينقصون. ولكن توبته بعد أن ضاعف له نظام الملك يوميته و شهريته كانت كما ذكر المؤرخون توبة نصوحا، و لذا فحن نميل إلى القول بأن المؤرخين بعد ابن السمعاني بالغوا في توجيه التهم للخطيب و لم ينصفوه، خاصة و أن نظام الملك دفع بأولاده إليه لتعليمهم و تهذيبهم، كما إن الطعن بعقيدة الخطيب بالاعتماد على خبر أراد أن يختبر به عقيدة شيخه لا يستد إلى حقائق ثابتة.

أما شخصية الخطيب العلمية فلم يشها شائبة، و قد أجمعت كل المصادر على علو شأنه الأدبي واللغوي، و أنه كان موضع ثقة و أمانة، و دعة علمية عالية.

المصادر والمراجع

ابن الجوزي. لاتا. *مرآة الزمان*. ج ١٢ (نسخة مصدرة في مكتبة المجمع بدمشق تحت رقم ٩٩).

ابن خلكان. ١٢٨٤ هـ. *وفيات الأعيان*. ط طهران.

ابن شهبة. لاتا. *طبقات النحاة واللغويين* (مخطوط الظاهرية بدمشق تحت رقم ٣٤٦٨).

ابن عساكر. لاتا. *تاريخ دمشق* (مخطوط الظاهرية بدمشق).

ابن ماكوك، علي بن هبة الله. لاتا. *الإكمال*. ج ١. ط الهند.

ابن نقطه. لاتا. *الاستدراك* (مخطوط الظاهرية بدمشق تحت رقم: ح ٤٢٣).

ابن الجوزي. ١٣٥٩ هـ. *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*. ط حيدر آباد الدكن.

حسين، طه. ١٩٦٥م. *تعريف القدماء بأبي العلاء*. ط القاهرة.

حسين، محمد بك. ١٢٩٦م. *الحماسة*. شرح الخطيب التبريزي. ط مصر. دائرة المعارف الإسلامية. ط مصر.

الحموي. لاتا. *معجم الأدباء*. ط مصر.

السيوطي، جلال الدين. ١٣٢٦ هـ. *بغية الوعاة*. ط القاهرة.

فرانسوي، السفر. ١٨٩٧م. *شرح حال خواجه نظام الملك*. ط انجي.

مصاحب، غلامحسين. لاتا. *دائرة المعارف الفارسية*. ج ١. لا ط.

